قل يا محمّد لكفّار مكّة المكذّبين المستهزئين ما أسألكم على هذا القرآن الكريم الّذى أتلوه عليكم، وأبيّن لكم معانيه، وأدعوكم إلى الاهتداء بنوره، من أجرٍ ولا مال، جزاءٍ أو ثواب، وما أنا من الّذين تكلّفوا هذا القرآن الكريم، وأتوا به من ذوات أنفسهم، وركبوا في سبيل عمله كلّ صعبٍ وذلول. إنّ شيئاً من ذلك لم يحصل، لأنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، ولأنّى قبل أن يوحيه الله تعالى إليّ ما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكنّ فضل الله تعالى عظيمٌ عليّ وعلى النّاس بإنزال هذا الكتاب العزيز.

إنّ هذا القرآن الكريم ما هو إلاّ ذكرٌ للعالمين، وتذكيرٌ للثّقلين الجنّ والإنس، وموعظةٌ للمكلّفين من الفريقين.

وأنتم أيّها الكافرون المكذّبون لى، المنكرون للقرآن الكريم أنّه كلام ربّ العالمين، لتعلمنّ أنتم وكلّ الكافرين المكذّبين في كلّ زمانٍ ومكان، نبأ هذا القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من غيب، سوف يرى النّور بإذن الله تعالى بعد وقت، قد يطول، ولا تزال أسرار هذا الكتاب العزيز تكتشفها الأجيال تلو الأجيال إلى يوم الدّين، وقد يقصر، على غرار ما تتحقّق للكافرين في غزوة بدر من هزيمةٍ نكراء أنذرهم بها القرآن الكريم.

ومن الأنباء الّتى أعلنها هذا الكتاب العزيز أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ سيظهره الحقّ جلّ وعلا على الدّين كلّه، السّماويّة منها، ومن باب الأَحْرَى والأَوْلى غير السّماويّة. وإنّ كلّ ما أنبأ القرآن الكريم به في مجال الغيب يتحقّق بفضل الله تباعاً، إلى أن يتحقّق وعد الله تعالى الحقّ، بأن يظهر دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ على الدّين كلّه، ولو كره المشركون والكافرون. وكفى بالله تعالى شهيداً وكفيلا.

ومعلومٌ أنّ جيش المسلمين الأكبر، وسلاحهم الأمضى، هو هذا الكتاب العزيز الّذى جاهد المصطفى ﷺ به الكافرين جهاداً كبيراً، والّذى يجاهد به الدّعاة في كلّ زمانٍ ومكان، إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها.

**تعقيب:

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١ ـ سورة ص من المكّيّ من القرآن الّذى نزل قبل الهجرة(١).

٢ ـ عدد ايات السّورة الكريمة ثمانٍ وثمانون آية، وعدد كلماتها سبعمائة واثنتان وثلاثون كلمة، وعدد حروفها ثلاثةٌ آلاف وتسعةٌ وستّون حرفاً(٢).

٣ ـ سورة صٓ المكّيّة تُعْنَى بأسس العقيدة كسائر المكّيّ من القرآن.

٤ ـ سورة ص المكّيّة إحدى السّور الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة، والّتى يأتي فيها كلّها الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو التّراخى. وسورة ص يأتي فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور. وإنّ القرآن الكريم أحد الموضوعات الّتى عُنِيت بها سورة ص الكريمة، وهي تُعْنَى بالقرآن الكريم في أوّلها وآخرها وفي أثنائها.

٥ ـ تشترك سورة ص مع سائر السّور المكّيّة في الخصائص المعنويّة والأسلوبيّة. ووراء ذلك لسورة ص العديد من الصّفات الّتي تختصّ بها. وحينما نسير خطوةً خطوةً مع موضوعات السّورة الكريمة وقضاياها تتبيّن كلٌّ من الصّفات المشتركة والخاصّة.

٦ ـ نزل صدر سورة ص على جهة الخصوص في مناسبة معيّنة، هي حرص الملأ من قريش على أن يأخذ أبو طالب، عمّ النّبيّ ﷺ، قبل أن يُتَوَفَّى، وقد حضرته أسباب الوفاة، على أن يأخذ لهم من ابن أخيه، وأن يأخذ لابن أخيه منهم. أمّا ما يأخذه لهم من ابن أخيه فأن يتركهم وآلهتهم. وأمّا ما يأخذه لابن أخيه منهم فأن يتركوه وإلهه. دعا أبو طالب ابن أخيه، وعرض عليه أمام الملأ من قريش طلبهم، فطلب النّبيّ ﷺ من الملأ من قريش أن يقولوا كلمة التّوحيد، لا إله إلاّ الله، ووعدهم إن هم قالوها أن يسودوا العرب والعجم معاً، فرفضوا الطّلب، وكان منهم ما سجّله صدر السّورة الكريمة.

وبهذا نستطيع أن نقول إنّ قضيّة التّوحيد المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة، وتهدف إلى تحقيقه بوسائلها المختلفة، وبموضوعاتها الأخرى المتعدّدة.

---

(١) الإتقان ١/ ٤٢ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابورى ٢٣/ ٨٠.

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٣/ ٨٠.

بقي علينا أن نشير إلى أنّ السّورة الكريمة في نهايتها تعود إلى الحديث في القضايا الّتى جاءت في بدايتها من أجل تأكيد قضيّة التّوحيد. وكما بدأت السّورة الكريمة بالحديث على جهة الخصوص عن القرآن الكريم، خُتِمت بالحديث عن القرآن الكريم.

٧ ـ اتّسم كفّار مكّة في صدر السّورة الكريمة على جهة الخصوص بالاستكبار في أنفسهم، وبالتّعالى على المصطفى ﷺ. لقد أومأ إلى استكبار كفّار مكّة مِثْلُ قول الحقّ جلّ وعلا(١): ﴿بل الّذين كفروا في عزّة وشقاق﴾ كما أومأ إلى تعالى القوم على المصطفى ﷺ مِثْلُ قول الحقّ جلّ وعلا(٢): ﴿أأُنْزِل عليه الذّكر من بيننا. بل هم في شكٍّ من ذكرى بل لّما يذوقوا عذاب﴾.

واتّسم الشّيطان الرّجيم في عَجُز السّورة بالاستكبار في نفسه والتّعالى على أبينا آدم عليه السّلام. وإلى هاتين الصّفتين القبيحتين اللّتين اتّسم بهما اللّعين الّذى استحوذ على الكافرين أومأ قول الحقّ جلّ وعلا(٣): ﴿قال يا أبليس ما منعك أن تسجد لّما خلقتُ بيديّ. أستكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين﴾.

٨ ـ كفّار مكّة الّذين استكبروا في أنفسهم وتعالوا على النّبيّ ﷺ والمؤمنين تقرّر آخر الآيات الكريمات الّتى تصوّر تجربتهم مع أبى طالبٍ عمّ المصطفى ﷺ أنّ هؤلاء الكافرين جندٌ قليلٌ حقيرٌ من المتحزّبين على الباطل مهزومٌ هنالك في بدرٍ مستقبلا. قال تعالى(٤): ﴿جندٌ مّا هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾.

٩ ـ بقصد إنذار كفّار مكّة وتحذيرهم من مغبّة كفرهم وعنادهم يشير السّياق إلى مجموعتين من الأمم المتحزّبة على الكفر، وإلى عقاب تلك الأمم على تكذيبها رسل الله تعالى إليها. علماً بأنّ آيتين كريمتين أشارت كلّ واحدةٍ منهما إلى

---

(١) سورة ص ٢.

(٢) سورة ص ٨.

(٣) سورة ص ٧٥و٧٦.

(٤) صورة ص ١١.

ثلاث من الأمم المكذّبة ورتبتها تأريخياً، وبأنّ الآية الكريمة الثّالثة التّعقيبيّة قرّرت عقاب تلك الأمم المكذّبة. قال تعالى[1] : ﴿كذّبت قبلهم قومٌ نوحٍ وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد. وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب. إن كلٌّ إلاّ كذّب الرّسل فحقّ عقاب﴾ وهكذا يُنْذَر كفّار مكّة بالقرآن الكريم وبسّنة الله تعالى في إهلاك المكذّبين وعدم قبول توبتهم بعد فوات الأوان.

١٠ ـ رغم إنذار الكافرين بكلٍّ من القرآن الكريم وبسنّة الله تعالى في الكافرين السّابقين هم يصرّون على الكفر والعناد فتقرّر الآية الكريمة التّعقيبيّة قبل آخر آيات القسم الأوّل أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين الّذين لم يستفيدوا من الآيات والنّذر ما ينتظرون إلاّ الصّيحة الأولى لإسرافيل عليه السّلام الّتى يموت بإذن الله تعالى الخلائق بسببها بين يدي قيام السّاعة. قال تعالى[2] : ﴿وما ينظر هؤلاء إلاّ صيحةً واحدةً مالها من فواق﴾ بل إنّ كفّار مكّة يستهزئون بالعذاب فيستعجلونه. وإلى ذلك أومأت آخر آيات القسم. قال تعالى[3] : ﴿وقالوا ربّنا عجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب﴾ إنّهم يسألون الله تعالى أن يعجّل لهم نصيبهم من العذاب والعقاب بدلاً من سؤال الله تعالى العفو والمغفرة والرّحمة!.

١١ ـ إزاء إصرار كفّار مكّة على الكفر والعناد والانتهاء إلى درك الاستهزاء بعذاب الله تعالى واستعجال عقابه يتحوّل السّياق إلى أمر المطفى ﷺ بالصّبر وإلى تسليته وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام وذلك بالإشارة إلى كوكبةٍ من النّبيّين الكرام، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه. وكان الحديث عن بعضهم على التّفصيل وهم داود وسليمان وأيّوب عليهم صلوات الله تعالى وسلامه، وعن بعضهم الآخر على الإجمال وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليَسَع وذو الكِفْل.

وكان الحديث عن داود وسليمان ابنه وأيّوب عليهم السّلام من الزّوايا الّتى

---

(١) سورة ص ١٢-١٤.

(٢) سورة ص ١٥.

(٣) سورة ص ١٦.

تجسّد صبر هؤلاء المصطفين الأخيار. وكأنّ السّياق يقول لمحمّد بن عبدالله ﷺ: إنّ لك أسوةً في الصّبر الّذى أمرناك به في هذه الكوكبة من موكب الرّسل الكرام.

إنّ داود عليه السّلام يوصف بأنّه ذو الأيدى أي القوّة على العبادة وطاعة الله تعالى، والقوّة بهذا المعنى هنا قوامها الصّبر. قال تعالى(١): ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب﴾ والحقّ جلّ وعلا يبتلى داود عليه السّلام بالمَلَكين في هيئة الخصمين اللّذين حكم على أحدهما قبل أن يعرف عليه السّلام وجهة نظره فيما رفع خصمه ضدّه من دعوى، فاستغفر داود ربّه عزّ وجلّ فغفر له، إنّه عزّ وجلّ هو الغفور الرّحيم. لقد أيقن داود عليه السّلام أنّ الله تعالى قد فتنه وابتلاه فتاب إليه وأناب.

وسليمان عليه السّلام يشغله استعراض خيل الجهاد في سبيل الله تعالى بالعشيّ عن صلاة العصر فيتألّم لتقصيره في جنب الله تعالى ويتقرّب إليه عزّ وجلّ بمسح سوق الخيل الّتي شغلته عن الصّلاة ورقابها بالسّيف والتّصدّق بلحمها. لقد عوّض الله تعالى سليمان عليه السّلام بما هو خيرٌ من الخيل وأسرع، أعنى الرّيح الّتى مسيرها صباحاً مسيرة شهر بالقوافل، ومسيرها مساءً مسيرة شهر آخر.

وفَتَنَ الله تعالى سليمان عليه السّلام وابتلاه بالجسد الّذى ألقاه على كرسيّ ملكه وعرشه. وهذا الجسد هو شقّ الإنسان الّذى وضعته إحدى نساء سليمان عليه السّلام ابتلاءً من الله تعالى لأنّه لم يقل: إن شاء الله، حينما نوى أن يطوف إحدى اللّيالي على نسائه فتلد كلّ واحدة منهن ولداً يجاهد في سبيل الله تعالى. لقد وضعت القابلة ذلك النّصف من الإنسان بعد ولادته على عرش سليمان عليه السّلام، فتاب عليه السّلام ورجع إلى ربّه عزّ وجلّ. وقد استجاب الله تعالى دعاء سليمان عليه السّلام فوهبه ملكاً لا يكون لأحدٍ بعده من البشر، وسخّر له الرّيح والإنس والجنّ.

وأيّوب عليه السّلام ابتلاه الحقّ جلّ وعلا في نفسه وأهله وماله. وكان عليه السّلام يُضْرَبُ به المثل في الصّبر. ثمّ استجاب الله تعالى دعاء أيّوب عليه السّلام

---

(١) سورة ص ١٧.

فعافاه ووهب له أهله ومثلهم معهم وأكرم زوجه الصّالحة الوفيّة. وإلى صبره عليه السّلام أشار قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿وخذ بيدك ضِغْثاً فاضرب به ولا تَحْنَثْ. إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب﴾.

ويوصف النّبيّون الّذين كان الحديث عنهم على الإجمال بأنّهم أصحاب القدرة على الطّاعة، والبصائر النّيّرة، ومن المصطفَيْن الأخيار.

١٢ ـ تسبيح الجبال والطير مع داود عليه السّلام تجسدٌ لتسبيح كلّ شيءٍ بحمد الله تعالى. وإلى هذا المعنى أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الإسراء[2] : ﴿تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ. وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم. إنّه كان حليماً غفورا﴾.

١٣ ـ عدد الأمم الّتي أهلكها الله تعالى على نحو ما تبيّن في الآيتين الكريمتين الثّانية عشرة والثّالثة عشرة ستّ. قال تعالى[3] : ﴿كذّبت قبلهم قوم نوحٍ وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد. وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب﴾ وعدد النّبيّين الّذين ذُكروا على الإجمال ستّة. قال تعالى[4] : ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار﴾ وقال تعالى[5] : ﴿واذكر إسماعيل واليَسَعَ وذا الكِفْلِ وكلٌّ من الأخيار﴾.

١٤ ـ الآيات الكريمات الّتي تتحدّث عن ابتلاء الله تعالى داود عليه السّلام بالملكين في هيئة الخصمين دروسٌ في الحكم وفي القضاء. وهذه الدّروس ممّا تختصّ به سورة ص.

١٥ ـ إثر الحديث عن داود عليه السّلام تأتي ثلاث آيات كريمات تعقيبيّات بقصد حمل الكافرين على تصحيح خطئهم عن طريق لفت الانتباه إلى عددٍ من

---

(١) سورة ص ٤٤.

(٢) الآية ٤٤.

(٣) سورة ص ١٢و١٣.

(٤) سورة ص ٤٥.

(٥) سورة ص ٤٨.

الحقائق الحسيّة والمعنويّة. إنّ الله تعالى ما خلق السّماوات والأرض وما بينهما باطلا. ذلك ظنّ الّذين كفروا فالنّار مثوىً لهم. والله تعالى لا يسوّى في الآخرة بين المؤمنين والكافرين، الّذين عملوا الصّالحات والّذين عملوا السّيّئات، الأبرار والفجّار. والقرآن الكريم كتابٌ مباركٌ أنزله الله تعالى ليتدبّر النّاس آياته وليتّعظ أصحاب العقول الرّاجحة بمواعظه. ويلاحظ أنّ الحديث عن السّماوات والأرض يأتى المرّة الأولى في الآية الكريمة السّابعة والعشرين من السّورة الكريمة. وهذه هي الآيات الكريمات. قال تعالى(١) : ﴿وما خلقنا السّماوات والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظنّ الّذين كفروا فويلٌ للّذين كفروا من النّار. أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار. كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الألباب﴾.

وقد تبيّن أنّ صدرسورة ص نزل في مناسبةٍ معيّنة كان لها القدرة على صبغ السّورة الكريمة بلونها.

١٦ ـ بعد الحديث عن كوكبة من موكب الرّسل الكرام يأتي تعقيباً على ذلك قول الحقّ جلّ وعلا(٢) : ﴿هذا ذكرٌ. وإنّ للمتقين لحُسْن مآب﴾ والمعنى هذا القرآن ذكرٌ لك يا محمّد ولقومك وموعظةٌ وشرف. وهو تعقيبٌ موجزٌ وبليغ، يأتي إثره التّحوّل إلي موضوعٍ آخر في السّورة الكريمة. ويلاحظ وجه الشّبه القويّ بين هذا التّعقيب وبين القول في الآية الكريمة الأولى : ﴿ص. والقرآن ذى الذّكر﴾ والقول في الآية الكريمة السّابعة والثّمانين: ﴿إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين﴾.

١٧ ـ تَحَوَّلَ السّياق إلى الحديث بعد ذلك عن الثّواب العظيم للمتّقين، والعذاب الأليم للطّاغين. وتمشّياً مع جوّ الإنذار الغالب على السّورة الكريمة والّذى جاءت الإشارة إليه في الآيات الكريمات الرّابعة، والخامسة والسّتّين، والسّبعين، كان الحديث عن المتّقين محدودا، وكان الحديث عن الكافرين مستفيضاً. وإنّما كان الحديث عن الكافرين مستفيضاً لأنّه بالإضافة إلى تعيينه أنواعاً من عذاب الكافرين

(١) سورة ص ٢٧-٢٩.

(٢) سورة ص ٤٩.

في النّار، هو ينقل لنا الحوار الّذى يتمّ في النّار بين المتبوعين والتّابعين. ومع أنّ مثل هذا الحوار موجودٌ في العديد من سور القرآن الكريم إلاّ أنّ سورة ص تجعل ذلك الحوار خصاماً، وهذا ممّا تختصّ به سورة ص بين سور القرآن الكريم. جاء تعقيباً على خصام التّابعين والمتبوعين قول الحقّ جلّ[1] وعلا : ﴿إنّ ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النّار﴾.

١٨ ـ والحقيقة أنّ سورة ص لا تختصّ بين سور القرآن الكريم بوصف الحوار بين أهل النّار بأنّه تخاصمٌ فحسب، بل إنّها تختصّ كذلك بوصف ما جرى بين الملائكةبشأن خلق آدم عليه السّلام بشيءٍ من هذا القبيل. قال تعالى[2] : ﴿ ما كان لي من علمٍ بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ والمعنى: إذ يتجادلون[3] وإنّ لفظة: ﴿تخاصم﴾ وجملة: ﴿يختصمون﴾ تذكّراننا بلفظة: ﴿الخصم﴾ في الآية الكريمة الحادية والعشرين، وبلفظة: ﴿خصمان﴾ في الآية الكريمة الثّانية والعشرين. وليس بخاف اشتمال الأصل اللّغويّ: «خصم» وكلّ الألفاظ المشتقة منه على حرف الصّادٍ. ومعروفٌ أنّ اسم السّورة الكريمة : ﴿ص﴾.

١٩ ـ لقد لفت انتباهنا مجيءُ حرف الصّاد في الكلمات المشتقّة من الأصل اللّغويّ: «خصم» في السّورة الكريمة، كما لفت انتباهنا معنى الصّبر الّذى أشير إليه بصريح اللّفظ في أكثر من موضع في السّورة الكريمة. إنّ المصطفى ﷺ يأمره الحقّ جلّ وعلا بأن يصبر وأن يذكر داود عليه السّلام صاحب القدرة على العبادة والصّبر عليها. جاء خطاباً للنّبيّ ﷺ قول الحقّ جلّ وعلا[4] : ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب﴾ والأيْد بمعنى القوّة والقدرة على الطّاعة والعبادة. وهذه الصّفة مشتركةبين النّبيّين. وقد وُصِف مجموعةٌ منهم بأنّهم أولو الأيدى والبصائر النّيّرة ومن المصطفين الأخيار، بسبب النّعوت الّتى أكرمهم الله

(١) سورة ص ٦٤.

(٢) سورة ص ٦٩.

(٣) انظر لسان العرب: «خصم».

(٤) سورة ص ١٧.

تعالى بها. وهذه النّعوت قوامها الصّبر، وقد وُصف بها النّبيّون في الآيات الكريمات الّتى تتحدّث على جهة الإجمال عن ستّة منهم، وهي الآيات الكريمات من الخامسة والأربعين إلى الثّامنة والأربعين. وكما كان لحرف الصّاد وجود في لفظين: ﴿الأبصار﴾ و: ﴿المصطفين﴾ كان لهذا الحرف وجود في الآية الكريمة السّادسة والأربعين. قال تعالى: ﴿إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدّار﴾ والمعنى أنّ الحقّ جلّ وعلا خصّهم بخاصّة خالصةٍ لا شوب عليها وهي أنهّم يلهجون بذكر الدّار الآخرة، ويعملون من أجلها، ويحثون الآخرين علي أن يحذوا حذوهم، ويفعلوا فعلهم.

وممّا يلفت النّظر بشأن صفة الصّبر المشتملة على حرف الصّاد الّذى تسمّي به السّورة الكريمة أنّ كفّار مكّة يوصى بعضهم بعضاً بالصّبر على عبادة الأصنام والأوثان والاستمرار على ذلك! جاء في الآية الكريمة السّادسة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيءٌ يراد﴾.

ونحن بطبيعة الحال لا نرى داعياً للوقوف من الوجهة المعنويّة عند كلّ الألفاظ المشتملة على حرف الصّاد، ولكنّا نقرّر ما سبق أن نبّه عليه الأئمّة الأعلام من كون الحروف الّتى تبدأ بها بعض السّور، يكثر بصورة لافتة للنّظر ورود تلك الحروف فى أثنائها. إنّ حرف الصّاد في سورة ص مثلاً يجيء في الآيات الكريمات والكلمات التّاليات. في الآية الكريمة الثّالثة جاء القول: ﴿ولات حين مناص﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّالثة عشرة القول: ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وفي الآية الكريمة الخامسة عشرة جاء القول: ﴿وما ينظر هؤلاء إلاّ صيحةً واحدة﴾ وفي الآية الكريمة العشرين جاء القول: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وفي الآية الكريمة الثّانية والعشرين جاء القول: ﴿واهدنا إلى سواء الصّراط﴾ وجاء في الآيتين الكريمتين الرّابعة والعشرين والثّامنة والعشرين القول: ﴿الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات﴾ وجاء في الآية الكريمة الحادية والثّلاثين القول: ﴿إذ عُرِض عليه بالعشيّ الصّافنات الجياد﴾ وجاء في الآية الكريمة السّادسة والثّلاثين القول: ﴿فسخّرنا له الرّيح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب﴾ وجاء في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّلاثين والثّامنة والثّلاثين

القول: ﴿والشّياطينَ كلّ بنّاءٍ وغوّاص. وآخرين مقرّنين في الأصفاد﴾ وجاء في الآية الكريمة الحادية والأربعين القول: ﴿واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشّيطان بنُصب وعذاب﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّانية والخمسين القول: ﴿وعندهم قاصرات الطّرف أتراب﴾ وجاء في الآية الكريمة السّادسة والخمسين القول: ﴿جهنّم يصلونها فبئس المهاد﴾ وجاء في الآية الكريمة التّاسعة والخمسين القول: ﴿إنّهم صالو النّار﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّالثة والسّتّين القول: ﴿أتّخذناهم سخْرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّالثة والثّمانين القول: ﴿إلاّ عبادك منهم المخلَصين﴾.

٢٠ ـ يأتي ذكر السّماوات والأرض المرّة الثّانية والأخيرة في السّورة الكريمة في الآية الكرمة السّادسة والسّتّين. قال تعالى[1]: ﴿قل إنّما أنا منذرٌ وما من إله إلاّ الله الواحد القهّار. ربّ السّماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفّار﴾ وهاتان الآيتان الكريمتان يبدأ بهما القسْم الأخير من السّورة الكريمة، وهو امتدادٌ للقسم الأوّل الّذي نزل في مناسبةٍ معيّنة، ومعمّقٌ لمعناه. وإنّ ذكر السّماوات والأرض هنا وفي الآية الكريمة السّابعة والعشرين دليلٌ على توحيد الله تعالى. وقد تبيّن أنّ قضيّة التّوحيد السّبب المباشر في نزول صدر السّورة الكريمة على جهة الخصوص.

إنّ هذا القسم الأخير من السّورة الكريمة يعمّق معنى القسم الأول. إنّ القسم الأخير يدور حول استكبار الشيطان في نفسه وتعاليه على آدم عليه السّلام. وإنّ القسم الأوّل يدور حول استكبار كفّار قريش في أنفسهم وتعاليهم على المصطفى ﷺ. وكما جمع بين الفريقين الاستكبار والتّعالى جمع بينهما الكفر بالله تعالى بالشّرك في حقّ كفّار مكّة، وبالعصيان في حقّ اللّعين. وقد نجّى الله تعالى عباده المخلصين من الفريقين.

٢١ ـ تحدّثت السّورة الكريمة عن الكثير من أمور الغيب في الماضى كخلق آدم عليه السّلام وطاعة الملائكة الأطهار وعصيان اللّعين، وكالحديث عن كوكبة من موكب الرّسل الكرام على التّفصيل والإجمال، وتحدّثت عن الكثير من أمور الغيب

---

(١) صورة ص ٦٥و٦٦.

في المستقبل كنعيم الأبرار في الجنّة وعذاب الفجّار في النّار. وقد أمرت السّورة الكريمة في ختامها المصطفى ﷺ أن يقول للكافرين بأنّهم سوف يعلمون نبأ القرآن الكريم فيما أخبر به من غيبٍ مستقبلاً. وهذا المستقبل يمتدّ إلى يوم الدّين. وما أصدق القرآن الكريم فيما أنبأ به من غيب. ويأتي على رأس ما سوف يعلمه جميع النّاس مستقبلاً إظهار الله تعالى دين الإسلام على الدّين كلّه، مصداقاً لقول المصطفى ﷺ لكفّار مكّة بحضرة عمّه أبي طالب: قولوا: لا إلّه إلاّ الله، تسودوا العرب والعجم معاً. إنّ أمر المصطفى ﷺ لكفّار مكّة أن يقولوا كلمة التّوحيد فلم يقولوها وإصرارهم على الكفر والعناد والاستهزاء، السّبب في نزول صدر السّورة الكريمة.

وإنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم والسّلف الصّالح قد قالوا كلمة التّوحيد بحقّ، وترجموا معناها بصدق، فسادوا الدّنيا وتحقّق شيءٌ ممّا أنبأ به هذا الكتاب العزيز في مجال الغيب.

وإنّ للخَلَف أسوةً حسنةً في السّلف الصّالح. إنّ عليهم أن يقولوا كلمة التّوحيد بحقّ، ويترجموها قولاً وعملاً بصدق. وبإذن الله تعالى سينالون ما نال السّلف الصّالح من خيري الدّنيا والآخرة.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرّمة
صبيحة يوم الأربعاء ٢١ /١٠/ ١٤٢٠هـ
الموافق ٢٨/ ١/ ٢٠٠٠م

كتبه الفقير الى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

رابعاً

سورة الزمر
حتّى نهاية الجزء
الثّالث والعشرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٥﴾

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ
خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ
ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ
وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾
لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

بين يدي التفسير

(١)

« الله تعالى الّذى أنزل الكتاب العزيز وخلق السّماوات والأرض وما بينهما وخلق النّاس هو المستحقّ أن يُفْرَد بالعبادة »

الآيات (١ - ٦)

تنزيل الكتاب العزيز والقرآن المجيد من الله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وليس كما يزعم كفّار مكّة، ومن شاكلهم بأنّ محمّداً ﷺ قد افتراه وأنّ الشّياطين تنزّلت به لأنّه قول شاعر. إنّا أنزلنا إليك يا محمّد الكتاب العزيز والقرآن المجيد بالحقّ الّذى يهدف إليه هذاالكتاب العزيز ويشتمل عليه. فاعبد الله تعالى، أيّها الرّسول الكريم، وحده دون سواه، مخلصاً له العبادة. ألا لله تعالى الدّين الخالص من الشّرك. والّذين اتّخذوا من دونه عزّ وجلّ شركاء يشركونهم مع الله تعالى في العبادة يقولون: ما نعبد هذه الأصنام والأوثان، الّتى هي على هيئة الملائكة حسب زعمهم، إلاّ ليرفعونا منزلةً عند الله تعالى حينما نسأله عزّ وجلّ حظّنا الموفور من الدّنيا، فقد كانوا لا يؤمنون بالبعث بعد الموت مطلقا. إنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحكم بين المشركين وبين المؤمنين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من شئون الدّين. إنّ الله سبحانه وتعالى لا يهدى إلى نور الحقّ من هو كاذبٌ بنسبة الولد والصّاحبة إليه عزّ وجلّ، ومن هو منكرٌ لحُجج الله تعالى كنودٌ لآلائه. لو أراد الله تعالى أن يتّخذ - على سبيل الافتراض - ولداً لاختار ممّا يخلق ما يشاء غير ما اختار المشركون. تنزّه الله تعالى عن كلّ ما ألصقه المشركون بالذّات العليّة من صاحبةٍ وولدٍ وكلّ ما لا يليق بها، هو الله تعالى الواحد الّذى لا إله

غيره، ولا ربّ سواه ، القهّار لخلقه. وهذا الله تعالى الواحد الّذى أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحقّ وأنزل عليه الكتاب العزيز بالحقّ هو الّذى خلق السّماوات والأرض وما بينهما بالحقّ ومن أجل غايةٍ ساميةٍ هي أن يستدلّ العباد بخلق الكون على الله تعالى الواحد المعبود. والله سبحانه الّذى جعل الظّلمات والنّور يكوّر الّليل على النهار فيستره ويطول الّليل شتاءً. ويكورّ النّهار على الّليل فيستره ويطول النّهار صيفاً. هذا إلى كون كلٍّ من الّليل والنّهار يخلف الآخر ويحلّ محلّه. والله تعالى سخّر الّليل والنّهار دائمي الحركة لنعلم عدد السّنين والحساب ولغير ذلك من الحكَم. وكلٌّ من الَليل والنّهار يجرى لأجلٍ مسمىٍّ وموعدٍ مضروبٍ هو قيام السّاعة فيضطرب بإذن الله تعالى خطّ سيرهما وخطّ سير الشّمس والقمر، ويذهب ضوء الشّمس ونور القمر.

وبعد الحديث عن السّماوات والأرض وما بينهما، وخَلْقُ السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس، يتحوّل السّياق إلى الحديث عن خلق الله تعالى أبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام، وعن خلق الأنعام بأزواجها الثّمانية من ضأنٍ ومعز وإبلٍ وبقر. وكأنّ ثمّة نزولاً في التّدرّج من السّماوات والأرض إلى الإنسان إلى الحيوان.

والله تعالى يخلقنا في بطون أمّهاتنا خلقاً من بعد خلق في ظلماتٍ ثلاثٍ هي ظلمات الرّحم والمشيمة، وهي الكيس الّذى يكون فيه الجنين، والبطن. وقد وقف العلم خاشعاً أمام هذه الحقائق العلميّة الّتى قرّرها القرآن الكريم. والمعروف أنّ وقت نزول القرآن الكريم كان وقت الرّكود العلميّ العالميّ. ذلكم الّذى فعل كلّ ذلك هو الله الّذى لا إله إلاّ هو، مربّيكم بنعمه وآلائه، له المُلْك كلّه، لا إله إلاّ هو ولا معبود بحقٍّ سواه، فأنّى تُصْرَفون أيّها المشركون عن توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ وعلا بالعبادة، إلى إشراك الآلهة العاجزة مع الله تعالى في العبادة!.

وهكذا يتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب العزيز على الحبيب ﷺ من أجل أن يعبد العباد ربّ العباد وحده لا شريك له، ويخلصوا له الدّين.

وإذا كان القرآن الكريم توحيداً وقصصاً وأحكاماً، فإنّ القصص والأحكام يخدمان قضيّة التّوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة. وقد تبيّن من الآيات الكريمات في هذا القسم ويتبيّن بإذن الله تعالى من الآيات الكريمات اللّاحقات أن قضيّة التّوحيد المحور الّذى تدور حوله سورة الزّمر الكريمة. إنّ كلّ معانى القسم وقضاياه، وكلّ معانى السّورة الكريمة وقضاياها، تخدم هذا القول في الآية الكريمة التّالية: ﴿ألا لله الدّين الخالص﴾ أي تخدم قضيّة التّوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة.

وممّا يلفت الانتباه بشأن إعجاز مطلع السّورة الكريمة، ممّا له عَلاقةٌ بأهمّ خصائص السّورة الكريمة من بين سائر سور القرآن الكريم، وجهُ الشّبه بين الآية الكريمة الأولى وبين الآية الكريمة الثّانية في سورتي الجاثية والأحقاف، وهما من السّور السّبع لآل حاميم، وعدم مجيء القول: ﴿حم﴾ في أول سورة الزّمر. وتفسير ذلك أنّ ثمّة ثماني سورٍ كريمات نزلت في نسق ورُتِّبتْ في المصحف الشّريف وفق ذلك النّسق. وهذه السّور تبدأ بسورة الزُّمر، الّتى لا تبدأ بالقول: ﴿حم﴾ والسّور السّبع لآل حاميم التّاليات، وهي غافر، وفصّلت، والشّورى، والزّخرف، والدّخان، والجاثية، والأحقاف. وقد بدأت سورة الزّمر بالقول: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ وهذه الآية الكريمة الأولى من سورة الزّمر هي الآية الكريمة الثّانية في سورتي الجاثية والأحقاف. وإنّما كان هذا القول يشكّل الآية الكريمة الثّانية في سورتي الجاثية والأحقاف ويشكل الآية الكريمة الأولى في سورة الزّمر لأن سورتي الجاثية والأحقاف من آل حاميم، ولأنّ سورة الزّمر ليست من آل حاميم بسبب عدم ابتداء السّورة الكريمة بالمطلع: ﴿حم﴾.

فهل ثمّة من حكمةٍ وراء حذف ﴿حم﴾ من أوّل سورة الزّمر على جهة الخصوص؟ يصحّ أن تكون الحكمة وراء حذف: ﴿حم﴾ من أول سورة الزّمر، والله تعالى أعلم، التّنبيه إلى أنّ أهمّ ما تختصّ به سورة الزّمر الكريمة من بين سائر سور القرآن الكريم البلاغة بالحذف الّذي يتحقّق في السّورة الكريمة بأكثر من أيّ سور القرآن الكريم من دون استثناء!.

وبشأن البلاغة بالحذف في هذا القِسْم الأوّل من السّورة الكريمة بعد حذف

القول: ﴿حم﴾ نتبيّن البلاغة بالحذف في الآية الكريمة الثّالثة والتّقدير: يقولون ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى. ونتبيّن البلاغة بالحذف في القول في الآية الكريمة السّادسة: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم: وخلق الله تعالى لكم أيّها النّاس الأنعام من إبلٍ وبقرٍ وغنم وأنزل من السّماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها فأنبتت من كلّ زوجٍ بهيجٍ فأكلت الأنعام من نبات الأرض وشربت من ماء السّماء. والله تعالى أعلم.

(٢)

« عذاب الكفورين الجحودين في النّار أليم، وثواب الشّكورين الصّبورين في الجنّة عظيم»

الآيات (٧-١٠)

على الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات والحجج القاهرات يصرّ كفّار مكّة على الشّرك والكفر بدين الإسلام، وبالقرآن الكريم، وتكذيب الرّسول العظيم ﷺ. وها هو ذا السّياق يتحوّل إلى الحديث عن هؤلاء الكافرين. إن تكفروا أيّها النّاس فإنّ الله تعالى غنيٌّ عنكم وأنتم الفقراء إلى الله تعالى. ولا يرضى عزّ وجلّ لعباده الكفر. وإن تشكروا أيّها النّاس لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة وتفردوه بالعبادة الّتى يستحقّها وحده دون سواه فإنّ الله تعالى شكورٌ حليم، ويرضى لعباده الشّكر. وليس بخافٍ البلاغة بالحذف في القول: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ ومن لطيف ما يجملُ التّنبيه عليه أنّ البلاغة بالحذف في الجزئيّة الكريمة أكّدها حذف حرف الإشباع من جملة: ﴿يرضه لكم﴾ فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء، الّذى لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

ولا تزر نفسٌ وازرةٌ وزر نفسٍ أخرى، ثمّ إلى ربّكم عزّ وجلّ مرجعكم بعد

الموت فينبّئكم يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدّنيا. إنّه عزّ وجلّ عليم بأعماق الصّدور ودخائل النّفوس.

وإذا مسّ الإنسان الكافر ضرٌّ في نفسه أو أهله أو ماله أو جاهه دعا ربّه عزّ وجلّ راجعاً وتائباً إليه. ثمّ إذا منحه الله تعالى نعمةً منه، فكشف ضرّه، وأزال بؤسه، نسي ماكان يدعو إليه من قبل من ضرّ، وجعل لله تعالى شركاء يعبدهم من دون الله تعالى ليُضلّ الآخرين ويصدّهم عن سبيله عزّ وجلّ. قل له أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم تمتّع بكفرك قليلاً مدّة بقائك حيّاً في الدّنيا. إنّك في الآخرة من أصحاب النّار الخالدين فيها.

بل أمن هو خاشعٌ في صلاته ساعات اللّيل ساجداً حيناً، وقائماً حيناً آخر، يحذر عذاب الله تعالى في الآخرة في النّار، حينما يتلو آيات العذاب، ويرجو رحمة ربّه عزّ وجلّ، حينما يتلو آيات الرّحمة في الصّلوات وفي غير الصّلوات. قل يا محمّد هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون، المؤمنون والكافرون، الطّائعون والعاصون. إنّما يتّعظ بآيات الله تعالى البيّنات أصحاب العقول الرّاجحة والحلوم الرّاسخة. وتبدو البلاغة بالحذف موفورة الحظّ في الآية الكريمة حينما نقارن بين معنى الآية الكريمة على النّحو الّذى تبين وبين صدر الآية الكريمة الّذى يدلّ على الجزء المحذوف. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هو قانتٌ آناء اللّيل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه﴾ كمن هو عاصٍ مصرٌّ على كفره واستهزائه وصدّه عن سبيل الله تعالى.

قل يا محمّد لعبادى على لساني: يا عبادى الّذين آمنوا اتّقوا ربّكم بفعل الأوامر واجتناب النّواهى، للّذين أحسنوا في هذه الدّنيا بعمل الصّالحات حسنةٌ في دنياهم وأخراهم. وأرض الله تعالى واسعةٌ، فعلى كلّ مسلمٍ يُحال بينه وبين أن يعبد الله تعالى بحُرّيّة مطلقة أن يهاجر من بلاد الكفر إلى دار الإسلام. وكأنّ هنا حثّاً للمؤمنين الّذين يسومهم المشركون الخسف وتشجيعاً على الهجرة. إنّما يوفّى الله تعالى الصّابرين على البلاء والطّاعات وعن المعاصى أجرهم بغير حساب.

ومن لطيف ما يمكن الإيماء إليه ممّا قد يكون مقوّياً للبلاغة بالحذف في

السّورة الكريمة حذف الياء الّتى تقع بعد الدّال من لفظة: ﴿عباد﴾ والّتى حذفت للتّخفيف. قال تعالى: ﴿قل يا عبادِ الّذين آمنوا اتقوا ربّكم﴾.

(٣)

« للمشركين ظُلَلٌ من النّار فوقهم وتحتهم، وللمتّقين غُرَفٌ في الجنّة فوقها غُرَف »

الآيات (١١-٢٠)

تجاه إصرار المشركين على شركهم يؤمر المصطفى ﷺ، وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين، أن يقول للمشركين: إنّى أُمِرْت أن أعبد الله تعالى مخلصاً له الدّين من الشّرك، ولأن أكون أوّل المسلمين من هذه الأمّة، فعلى النّاس جميعاً أن يتّبعوه ﷺ. كما أُمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول: إنّى أخاف إن عصيت ربّى عذاب يوم القيامة العظيم، وأن أعبد الله تعالى وحده لا شريك له، مخلصاً له ديني من الشّرك. فاعبدوا أيّها المشركون ما شئتم من دون الله تعالى من الأصنام والأوثان الّتى تقودكم إلى نار جهنّم. قل يا محمّد للمشركين: إنّ الخاسرين على الحقيقة هم المشركون الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بدخول الجميع النّار وبئس القرار. ألا ذلك هو الخسران المبين حقّا، للمشركين وأهليهم الّذين لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النّار كجبال السُّحُب، ومن تحتهم ظللٌ أخرى من النّار. ذلك العذاب الأليم يخوّف الله تعالى به عباده الّذين أضيفوا إليه عزّ وجلّ إضافة تشريف، والّذين يأمرهم الحقّ جلّ وعلا بأن يتّقوه عزّ وجل بفعل الأوامر واجتناب النّواهي.

ومن نعوت أولئك المتّقين أنّهم اجتنبوا عبادة كلّ ما يعبده المشركون من دون الله تعالى، ورجعوا إلى الله تعالى تائبين عابدين. إنّ لهؤلاء البشارة من الله تعالى بدخول جنّات النّعيم. فبشّر يا محمّد بالجنّة عبادي الّذين يستمعون القول ويتدبّرونه فيتّبعون أحسنه، وهو القرآن الكريم، الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ. إنّ أولئك هم

الّذين هداهم الله تعالى، وزادهم هدىً، وآتاهم تقواهم، وأولئك هم أصحاب العقول الرّاجحة.

ويلاحظ بشأن لفظة: ﴿عباد﴾ في القول: ﴿فبشر عباد﴾ مجيء الحذف الّذى سبق أن جاء في اللّفظة ذاتها في الآية الكريمة العاشرة.

على أنّ البلاغة بالحذف تبدو جليّةً في الآية الكريمة التّاسعة عشرة. قال تعالى: ﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النّار﴾ والمعنى: أفمن وجبت عليه كلمة عذاب الله تعالى بدخول النّار فأنت تخلّصه يا محمّد؟ أفأنت تنقذ يا محمّد من في النّار فعلاً؟ إنّك لا تهدى من أحببت أن تهديه ولو حرصت، ولكنّ الله تعالى هو الّذى يهدى من يشاء.

لكن الّذين اتّقوا ربّهم عزّ وجلّ لهم غرفٌ مبنيّة في أعلى الجنّة من فوقها غرف. وهذه الغُرَف للمتّقين في مقابل الظُّلل للمشركين. وتلك الغرف العالية تجرى من تحت أشجارها الأنهار. وعد الله تعالى بذلك وعداً حقّا. والله تعالى لا يُخْلِفُ الميعاد.

(٤)

« للمشركين الّذين زُيّن لهم الحياة الدّنيا عذاب الأولى والآخرة، وللسلمين الّذين يتّبعون القرآن الكريم جنّات النّعيم »

الآيات (٢١-٣١)

لقد وجبت كلمة العذاب على المشركين الّذين أصرّوا على شركهم وإنكار البعث بعد الموت لأنّ الحياة الدّنيا صرفتهم بزينتها عن الآخرة. وقد نزّل السّياق الحياة الدّنيا وزينتها الفانية منزلة الزّرع النّضير الّذى يصفرّ ويموت ويغدو حطاماً وهشيماً تذروه الرّياح. ألم تر أيّها الرّسول الكريم وأيّها الإنسان أنّ الله سبحانه

وتعالى أنزل من السّماء ماءً مباركاً فأدخله عيوناً في الأرض وأخرجه ينابيع تجيش بالماء العذب الفرات. ثمّ يخرج الله تعالى بذلك الماء الواحد زرعاً مختلفاً ألوانه، وثمراً مختلفاً ألوانه وأشكاله وطعمه وريحه. ثمّ يجفّ ذلك الزّرع ويصفرّ ويموت ويغدو حطاماً وهشيماً تذروه الرّياح. إنّ هذا الزّرع رمزٌ للحياة الدّنيا وزينتها الفانية ومتعتها السّريعة الزّوال. إنّ حقيقة الحياة الدّنيا لا تخفى على أولى العقول الرّاجحة الّذين لا ينسون حظّهم منها ويحسنون كما أحسن الله تعالى إليهم. أمّا الّذين كفروا فقد زُيّنت لهم الحياة الدّنيا الّتى جعلوها منتهى همّهم ومبلغ علمهم لأنّهم عطّلوا عقولهم. وهكذا كنّا أمام فريقين، المؤمنين والكافرين.

وإذا كان الماء هو الّذى ينزل من السّماء هنا، فالّذى ينزل في الآية الكريمة السّادسة من السّورة الكريمة هو الأنعام. وقد تبيّنّا البلاغة بالحذف هنالك. كما تبيّنّا البلاغة بالحذف هنا وذلك في القول: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ لأنّ العيون هي الدّاخلة في الأرض، ولأنّ الينابيع هي الخارجة منها. ثمّ إنّ الزّروع مختلفةٌ ألوانها وكذلك الثّمار.

وتبدو البلاغة بالحذف أشدّ جلاءً في القول: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه﴾ وتمام المعنى، والله تعالى أعلم، كمن أراد الله تعالى أن يضلّه، ثمرةً نكدةً لحرصه على الضّلالة، فهو في ظلماتٍ من الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء. فويلٌ للقاسية قلوبهم عن ذكر الله تعالى. أولئك في ضلالٍ مبين. أمّا المؤمنون فقلوبهم مطمئنّةٌ بذكر الله تعالى ومهتدون.

وفي مقابل قسوة قلوب الكافرين لين قلوب المؤمنين. إنّ الله سبحانه وتعالى نزّل أحسن الحديث كتاباً يشبه بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً، وتثنّي فيه المعانى وتكرّر، من وعدٍ ووعيدٍ وأحكامٍ وقصصٍ وأخبار، وما إلى ذلك.

وحينما يقرأ الّذين يخشون ربّهم آيات العذاب تقشعرّ جلودهم وتنكمش، وحينما يقرأون آيات الرّحمة تلين جلودهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى، فتلهج به ألسنتهم. ذلك القرآن هدى الله تعالى يهدى به من يشاء من عباده، فيؤمنون به، ويتمشّون بموجبه. أمّا الكافرون المعرضون عن القرآن الكريم فقد

زادهم الله تعالى إعراضاً، وقلوبهم انصرافا.

وبناءً على اختلاف موقف المؤمنين والكافرين من القرآن الكريم وهدي خير الأنام ﷺ كان مصير المؤمنين الجنّة ومصير الكافرين النّار.

ونصادف البلاغة بالحذف في تقرير مصير الفريقين، وذلك في القول: ﴿أفمن يتّقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾. والمعنى، والله تعالى أعلم، أفمن يلقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة حينما يُلْقى في النّار على حرّ وجهه كمن يأتى آمناً مطمئناً يوم القيامة؟ وقيل للظّالمين الّذين وضعوا العبادة في غير موضعها: ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون في الحياة الدّنيا من كفرٍ وصدٍّ عن سبيل الله تعالى.

لقد كذّب الّذين من قبل كفّار مكّة وآذوا رسل الله تعالى إليهم فأتاهم عذاب الله تعالى من حيث لا يشعرون ولا يرتقبون. فأذاق الله تعالى المشركين الخزي في الحياة الدّنيا من قتلٍ وأسرٍ وهزيمةٍ في مجال السّيف والسّنان، والحجّة واللّسان. ولعذاب الآخرة أكبر فى نار جهنّم. لو كانوا يعلمون ذلك المصير الأليم لفرّوا إلى الله تعالى فآمنوا وعملوا صالحاً.

وإذا كان ضرب المثل للحياة الدّنيا بالزّرع مفهوماً ضمناً، فقد كان ذلك الفهم توطئةً للحديث عن الأمثال الّتي لا يعقلها إلاّ العالمون.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى للنّاس في هذا القرآن المجيد وقدّم من كلّ مثلٍ يرضى كلّ عقلٍ بفصوص حكمه، ويشبع كلّ نفس بجليل معناه، ويطرب كلّ أذنٍ بجميل مبناه، لعلّهم يتذكّرون ويتّعظون حينما يتبيّنون المرامي القصيّة في حلّةٍ بهيّة. وهذا القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين وغير ذى عِوجٍ في معانيه ولا غموضٍ في مراميه، لعلّ النّاس يتّقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهى، حتّى يبلغوا مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

وبعد الإشارة إلى عموم المثل في القرآن الكريم يأتى النّصّ على خصوصه.

ضرب الحقّ جلّ وعلا وجعل مثلاً للكافر وللمؤمن. إنّ مثل الكافر الّذى يعبد الأصنام والأوثان مثل العبد الّذى يملكه شركاء سيّئو الخلق مختلفون

متنازعون. إنّ كلّ واحدٍ من المالكين لذلك الرّجل يريد من المملوك أن يعمل ما يأمره به بمقدار نصيبه منه. وهنا تتعارض الأوامر، وتصطدم المصالح، ولا يستطيع المملوك، ولو حرص، أن يرضي واحداً من الشّركاء. هذا هو مثل المشرك الّذى يحرص على أن يرضي الآلهة المزعومة، فليس لديه شعور الرّضا، ولا راحة البال، ولا استقرار الحال.

وفي مقابل العبد المملوك لشركاء سيّئى الخلق متنازعين ثمّة العبد المملوك لسيّد واحدٍ وديع. إنّ أوامر السّيّد متناغمة. وإنّ أعمال العبد متوائمة. وينعكس كلّ ذلك على عمل العبد دأباً، وعلى نشاطه استمرارا، وعلى نفسه رضاً، وعلى ضميره ارتياحاً، وعلى حاله استقرارا.

إنّ حال هذا العبد المملوك لسيّد واحدٍ حال المؤمن الموحّد. إنّ الحقّ عزّ وجلّ يكلّفه ما في وسعه، ويعينه في عمله، ويغفر زلّته، ويقيل عثرته، ويغفر ذنبه، ويقبل توبته.

إنّه كما لا يستوى المملوك لشركاء متشاكسين والمملوك لسيِّدٍ واحدٍ وديع مسالم، كذلك لا يستوى المشرك الّذى يعبد الآلهة المزعومة والمؤمن الّذى يعبدً الإله الواحد الحقّ الكريم. إنّ كلّ حال المشرك شقاء. وإنّ كلّ حال المؤمن هناء.

ولوضوح المثل، وبلوغ الحجّة، وعناد المشركين يجىء القول: ﴿الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

ولمّا كان المشركون المصرّون على عنادهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى يتربّصون بالمصطفى ﷺ ريب المنون وكأنّهم هم الخالدون فإنّ السّياق يبيّن أنّ المصطفى ﷺ إذا كان سوف يموت بإذن الله تعالى فإنّ المشركين سوف يموتون كذلك. إنّه لا معنى لاستعجال المشركين موت النّبيّ ﷺ والشّماتة بموته ﷺ لأنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت بإذن الله تعالى. وليس المهمّ الموت الّذى سوف تذوقه كلّ نفس، إنّما المهمّ ما بعد الموت يوم يقوم النّاس لربّ العالمين للحساب والجزاء. إنّ المصطفى ﷺ، إمامُ المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، في أعلى عليّين، في جنات النّعيم. والمؤمن مع مَنْ أحبَّ. أمّا الكافر ففى أسفل سافلين، والعياذ بالله.

التّفسير

(١)

« الله تعالى الّذى أنزل الكتاب العزيز وخلق السّماوات والأرض وما بينهما وخلق النّاس هو المستحقّ أن يُفْرَد بالعبادة»

الآيات (١ ـ ٦)

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

تنزيل : مبتدأ مرفوع بالضّمّة(١).

من الله : خبر المبتدأ(٢).

تنزيل الكتاب العزيز وإيحاء القرآن الكريم إلى محمّد بن عبدالله ﷺ، مِنَ الله تعالى، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه وتدبيره وقوله وفعله وشرعه وقَدَره، وفي كلِّ شيءٍ سبحانه. لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه عزّ وجلّ.

وهذه الآية الكريمة الأولى هي ذات الآية الكريمة الثّانية في كلٍّ من سورة الجاثية والأحقاف، وهما السّورتان الكريمتان السّادسة والسّابعة من آل حاميم(٣) والمعروف أنّ آل حاميم، وهي سبع سورٍ كريمات، تأتي بعد سورة الزُّمر مباشرةً في نَسَق. والسّور الخمس التّاليات هي غافر، وفصّلت، والشّورى، والزّخرف، والدّخان. وسمّيت هذه السّور السّبع الكريمات: آل حاميم لأنّها تبدأ بالقول : ﴿حم﴾.

فما الّذي يلاحظ على سورة الزّمر الكريمة الّتي تشبه آيتها الأولى الآية الكريمة الثّانية في سورتي الجاثية والأحقاف؟ الّذي يلاحظ أنّ سورة الزّمر الكريمة ليست من السّور الكريمة الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة فَلَمْ تبدأ بالقول : ﴿حم﴾ الّذي ابتدأت به السّبع السّور التّاليات.

فهل حذف المطلع: ﴿حم﴾ أريد به التّنبيه إلى أنّ ممّا تختصّ به سورة الزّمر بأكثر من أيّ سورةٍ من سور القرآن الكريم هو البلاغة بالحذف! ربما، فالله تعالى أعلم. والملاحظ أنّ البلاغة بالحذف في سورة الزُّمر أكثر من كلّ السّور الأُخر.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٩ وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٢ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٤١٤ والجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٢ والجلالين. وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٩ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٤١٤.

(٣) انظر لسان العرب : «حمم».

ومن ألطف ما يمكن الإيماء إليه أنّ سورة الزُّمر وسور آل حاميم السَّبْع نزلت في نسق(١) وهي كذلك في المصحف الشّريف في نسق.

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

فاعبد الله مخلصاً له الدّين: فاخشع لله يا محمّد بالطّاعة وأخلص له الألوهية وأفرده بالعبادة ولا تجعل له في عبادتك إيّاه شريكاً كما فَعَلَتْ عبدة الأوثان(٢).

ألا لله الدّين الخالص: ألا لله العبادة والطّاعة وحده لا شريك له خالصةً لا شريك لأحدٍ معه فيها(٣).

ما نعبدهم: يقولون ما نعبدهم(٤) وجملة القول المقدّرة في محلّ رفع خبر المبتدأ: الّذين(٥).

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ الإتقان ١/ ٤٣.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٢.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٢.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٢١ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢١.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٢١.

إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى: أي ليشفعوا لنا ويقرّبونا عنده منزلة(١) والزُّلفى : القرب(٢) والمنزلة والحُظْوة(٣) وذلك أنّ كفّار قريش عَمَدوا إلى أصنامٍ اتّخذوها على صور الملائكة المقرّبين في زعمهم، فعبدوا تلك الصّور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورَزْقهم وما ينوبهم من أمر الدّنيا. فأمّا المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به(٤).

إنّ الله يحكم بينهم : يوم القيامة(٥).

فيما هم فيها يختلفون : في الدّنيا(٦).

كَفّار : لنعمه جحودٌ لربوبيّته(٧).

إنّا أنزلنا إليك يا محمّد الكتاب العزيز بالحقّ الّذى لا شكّ فيه ولا امتراء، لأنّ القرآن الكريم يهدف إلى الحقّ ويشتمل على الحق: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحقّ نزل﴾(٨) فاعبد الله تعالى وحده لا شريك له، أيّها الرّسّول الكريم والنّبيّ العظيم، مخلصاً له الدّين، مفرداً له بالعبادة، قائلاً: لا إله إلاّ الله، مترجماً كلمة التّوحيد إلى عمل.

وحينما يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه محمّداً ﷺ بأن يُخْلص له عزّ وجلّ العبادة وحده دون سواه فمن باب الأحرى والأولى أن ينسحب هذا الأمر على كلّ عباد الله تعالى.

ألا لله تعالى الدّين الخالص ، والعبادة المطلقة، وشهادة أن لا إله إلاّ الله.

---

(١) تفسير ابن كثر ٧/ ٧٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٣.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «زلف» ١/ ٢٨٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٧٥.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٣.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٣.

(٨) سورة الإسراء ١٠٥.

ينبغي أن تُعْلَنَ هذه الحقيقة وأن يعلمها الجميع ويعملوا بمقتضاها.

والّذين اتّخذوا من دون الله تعالى أولياء وشركاء يقولون ما نعبد هذه الأصنام والأوثان إلاّ ليقرّبونا إلى الله تعالى زُلْفى، ويرفعونا منزلة، ويزيدونا حُظْوة. إنّ الله تعالى سوف يحكم بين المشركين وبين المؤمنين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدّنيا من شئون الدّين. إنّ الله سبحانه وتعالى لا يهدى من هو كاذبٌ يفترى على الله تعالى الكذب بنسبة الصّاحبة والولد إليه عزّ وجلّ، ومَنْ هو كَفّارٌ جاحدٌ لربوبيّته جلّ وعلا، مكذّبٌ لآياته، منكرٌ لحُججه.

لو أراد الله تعالى أن يتّخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء، ولاختار غير من اختار مشركو العرب وأهل الكتاب وغيرهم مِنَ الّذين زعموا أنّ الله تعالى اتّخذ ولداً. تنزّه الله تعالى عمّا يقول الظّالمون وتعالى علواً كبيراً. إنّه جلّ وعلا هو الله الواحد الّذى لا إله إلاّ هو القهّار لخلقه الّذى عَنَت الوجوه وخَضَعَتْ وذلّت لعظمته.

وهكذا يتبيّن أنّ إنزال الله تعالى القرآن الكريم من أجل ترسيخ عقيدة التّوحيد ورفع راية لا إله إلا الله، محمّدٌ رسول الله.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

يكوّر اللّيل على النّهار ويكوّر النّهار على اللّيل: يغشى هذا على هذا وهذا على هذا(١) وأصله من تكوير العمامة وهو لفّها وجمعها(٢).

لأجلٍ مسمّى: إلى قيام السّاعة(٣).

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٣.

(٢) لسان العرب: «كور».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٤.

العزيز : في انتقامه ممّن عاداه(١).

خلق الله تعالى السّماوات والأرض وأبدعهما على غير مثال سابق بالحقّ ومن أجل غايةٍ نبيلة هي إفراده عزّ وجلّ بالعبادة وليس عَبَثاً وباطلاً كما يظنّ الّذين كفروا. يكوّر اللّيل على النّهار ويلفّه عليه ويطويه، ويغطّيه به ويستره فيطول اللّيل. ويلاحظ تقديم اللّيل في الذّكر لأنّ الظّلام هو الأصل والنّهار أو النّور طارىءٌ عليه. ويكوّر النّهار على اللّيل ويلفّه عليه ويطويه فيطول النّهار. ويطول اللّيل شتاءً، ويطول النّهار صيفا.

وسخّر الله تعالى لنا الشّمس والقمر دائمي الحركة لنعلم عدد السّنين والحساب، إلى غير ذلك من المنافع. ويظلّ كلٌّ من الشّمس الواحدة والقمر الواحد يقومان بما نيط بهما من وظائف إلى قيام السّاعة بإذن الله تعالى واضطراب كلٍّ من الشّمس والقمر في سيرهما، وذهاب ضوء الشّمس ونور القمر الّذى يستمدّه من ضوء الشّمس.

ألا إنّ الله سبحانه وتعالى العزيز في ملكه المنتقم ممّن عاداه، الغفور لمن تاب وأناب، الرّحيم بأوليائه.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

خَلَقَنا الله سبحانه وتعالى من نفسٍ واحدةٍ هى نفس أبينا آدم عليه السّلام. ثمّ جَعَلَ الله تعالى من هذه النّفس الواحدة وأوجد زوجها، هي أمّنا حوّاء عليها

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٤.

السّلام الّتى خلقها الله تعالى من ضِلَعٍ من أضلاعه عليه السّلام فيما يقال.

وكي يجعل عزّ وجلّ الأرض صالحةً لسُكْنى الإنسان هيّأها لذلك. ومن وسائل تهيئة الأرض لسُكنى الإنسان تقدير أقواتها. ومن هذه الأقوات الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم. وقد نصّت الآية الكريمة على أنّ الحقّ عزّ وجلّ أنزل لنا من الأنعام ثمانية أزواج. وإنّ جملة: أنزل هنا الّتى تستعمل بشأن خلق الله تعالى الأنعام تذكّرنا بالجملة ذاتها الّتي تستعمل بشأن اللّباس الّذى يستر العورات ويتجمّل به الإنسان. جاء في سورة الأعراف(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشا. ولباس التّقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون﴾ إنّ ربّ العزّة والجلال أنزل من السّماء ماءً نما به بفضل الله تعالى كلٌّ من الزّرع والضّرع. ومن كلٍّ من الزّرع والضّرع نُسِجَت الأقمشة وعُمِلَت الثّياب. إنّ القُطْنَ والكَتّان مثلاً ضربان من النّبات، وإنّ الأصواف والأوبار والأشعار مَثَلاً مأخوذةٌ من الضّأن والإبل والماعز. وبهذا يتبيّن أنّ القول: ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشا﴾ ضربٌ من الاختزال. إنّ الماء المبارك النّازل من السّماء والّذى يشربه النّبات والحيوان يفضى إلى اتّخاذ الملابس المصنوعة من الأقمشة المنسوجة من متعلّقات كلٍّ من النّبات والحيوان. وهذه الملابس منها الضّروريّ الّذى يستر العو ، ومنها الكماليّ الّذى يتزيّن به الإنسان. وقد عُبِّر بالرّيش عن لباس الزّينة لأنّ الرّيش زينة الطّائر. فثمة استعارةٌ للرّيش دليلاً على لباس الجمال والزّينة.

وإنّ الشّيء، ذاته يقال بشأن قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ إنّ المعنى، والله تعالى أعلم، والله تعالى الّذى خلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج، أنزل لكم كذلك من السّماء ماءً تحيا به بفضل الله تعالى الأنعام الّتى تشرب منه وتأكل ممّا تنبت الأرض من أنواع النّبات. وهذه الثّمانية الأزواج هي الّتى نصّت عليها سورة الأنعام الكريمة. قال عزّ من قائل(٢): ﴿ثمانية أزواج من

---

(١) الآية ٢٦.

(٢) سورة الأنعام ١٤٣و١٤٤.

الضّأن اثنين ومن المَعْز اثنين. قُلْ آ لذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين. نبّئونى بعلمٍ إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين. قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين. أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا. فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضلّ النّاس بغير علم. إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين﴾.

والله سبحانه وتعالى الّذى جعل نسل أبى البشر آدم عليه السّلام من خلاصة وصفوٍ من ماء مهين، يخلقنا في بطون أمّهاتنا خلقاً من بعد خلق في ظلماتٍ ثلاث، هي ظُلْمة الرّحم، وظلمة الكيس الّذى فيه الجنين ويُسَمَّى: المشيمة(١) وظلمة البطن. ومن الايات الكريمات الّتى أشارت إلى مراحل خلق الجنين في بطن أمّه قولُ الحقّ جلّ وعلا في سورة المؤمنون(٢): ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثمّ جعلناه نطفةً في قرار مكين. ثمّ خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

إنّ الله تعالى هو الّذى خلق السّماوات والأرض وسخّر الشّمس والقمر وجعل اللّيل والنّهار يَخْلُف كلٌّ منهما الآخر، ويدخل فيه تارةً ويغطّيه تارةً أخرى، وخلق النّاس والأنعام، وأنزل الماء من السّماء وهيّأ الأرض لِسُكْنَى النّاس. إنّه هو الله الّذى لا إله إلا هو، الّذى يستحقّ أن يُعْبَدَ وحده دون سواه، ربّكم الّذى ربّاكم بنعمه وغمركم بآلائه ودبّر الكون كلّه، له الملك المطْلق، لا إله إلاّ هو، ولا معبود بحقٍّ سواه عزّ وجلّ. فأنّى تُصْرَفون أيّها الكافرون عن إفراد الله تعالى بالعبادة وتنحرفون إلى الشّرك!.

كيف جاز لكم أن تشركوا الآلهة العاجزة عن كلّ شيء مع الله تعالى المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه دون سواه!.

---

(١) انظر لسان العرب: «شيم».

(٢) الآيات ١٢-١٤.

(٢)

« عذاب الكفورين الجحودين في النّار أليم، وثواب الشّكورين الصّبورين في الجنّة عظيم»

الآيات (٧ ـ ١٠)

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

إن تكفروا أيّها النّاس نعم الله تعالى عليكم، وتشركوا معه في العبادة الآلهة الزّائفة، فإنّ الله تعالى غنيٌّ عنكم، وأنتم الفقراء إلى الله تعالى، وسيعاقبكم على شرككم، ولا يرضى عزّ وجلّ لعباده الكفر.

وإن تشكروا أيّها النّاس لله تعالى نعمه العظيمة عليكم، وتفردوه بالعبادة، فإنّ الله تعالى الغنيّ عنكم، سوف يجزل لكم المثوبة، ويرضى لكم شكركم له عزّ وجلّ.

وليس بخاف البلاغة بالحذف في القول: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ وبشأن المحذوف في القرآن الكريم نجد دائماً الدّليل عليه في المذكور من الكلام.

ولا تحمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفسٍ أخرى. فالكلّ مسئولٌ مسئوليّةً كاملةً وَحْدَه عمّا قدّم أو أخّر، أحسن أو أساء.

ثمّ إلى ربّكم مرجعكم أيّها النّاس، فينبّئكم يوم القيامة بما كنتم تعملونه في الدّنيا. إنّه عزّ وجلّ قد أحاط علماً بدخائل الصّدور، ووساوس النّفوس، وسيجازى كلاًّ بما يستحقّ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

ثمّ إذا خوّله نعمةً منه: ثمّ إذا منحه ربّه نعمةً منه، يعنى عافيةً فكشف عنه ضرّه وأبدله بالسَّقَم صحّة، وبالشّدّة رخاء. والعرب تقول لكلّ من أعطى غيره من مال أو غيره قد خوّله[1] وخوّله الله نعمة: ملّكه إيّاها[2] وخوّله المال: أعطاه إيّاه، وقيل أعطاه إيّاه تفضّلاً[3].

لِيُضِلَّ عن سبيله: اللّام للتّعليل[4] يقول: ليزيل من أراد أن يوحّد الله ويؤمن به عن توحيده والإقرار به والدّخول في الإسلام[5].

وإذا مسّ الإنسان الكافر الضّرّ، ولمسه لمساً خفيفاً شيءٌ من المرض أو الفاقة أو الشّدّة وما إلى ذلك دعا ربّه جلّ وعلا وحده دون سواه، تائباً إليه، مقبلاً عليه. ثمّ إذا خوّله ربّه عزّ وجلّ نعمةً منه، ووهبه فضلاً، وكشف ضرّه، وأزال بؤسه، ووسّع عليه رزقه، وأسبغ عليه نعمه الظّاهرة والباطنة، نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وترك دعاء الله تعالى الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء، وجعل لله تعالى شركاء وأشباهاً وأمثالاً، ليضلّ الآخرين عن سبيل الله تعالى، ويصدّهم عن الدّخول في دين الإسلام، ويحرمهم من إفراد الله تعالى بالعبادة.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٧.

(٢) لسان العرب: «خول».

(٣) لسان العرب: «خول».

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٢٦.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٨.

قل أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لكلّ واحد من كفّار مكّة، وقل أيّها المؤمن لكلّ كافر : تمتّع أيّها الكافر بكفرك قليلاً مدّة بقائك حيّاً في الحياة الدّنيا، فما أسرع مرور الأيّام واللّيالي، وما أقرب الموت، وكلّ آتٍ قريب. إنّك أيّها الكافر من أصحاب النّار، وبئس القرار.

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

أمّن هو قانت : أم للإضراب الانتقاليّ بمعنى بل والهمزة الّتى للاستفهام الإنكاريّ. مَنْ : موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره كمن هو عاص(١) بالكفر أو غيره(٢) وكمن أشرك بالله وجعل له أنداداً(٣) والقُنوت لزوم الطّاعة مع الخضوع(٤) والخشوع في الصّلاة(٥).

آناء اللّيل : ساعات اللّيل(٦).

ساجداً وقائماً : ساجداً أحياناً وأحياناً قائما(٧).

يحذر الآخرة: يحذر عقاب الآخرة(٨).

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٢٧ وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٨.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٧٨.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «قنت» ٢/ ٥٣٤.

(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٧٨.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٩.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٩.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٩.

ويرجو رحمة ربّه : ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنّة(١).

قل : يا محمّد لقومك(٢).

هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون: هل يستوى الّذين يعلمون ما لهم في طاعتهم ربّهم من الثّواب، وما عليهم في معصيتهم إيّاه من التّبعات(٣).

بل أَمَنْ هو عابدٌ لله تعالى آناء اللّيل، مطيعٌ له عزّ وجلّ خاشعٌ في صلاته خلال ساعات اللّيل، ساجداً حيناً، وقائماً حيناً آخر، يحذر عذاب الآخرة في نار الجحيم، ويرجو رحمة ربّه جلّ وعلا في جنّات النّعيم، كمن هو عاصٍ لله تعالى، يستمتع بكفره آناء اللّيل وأطراف النّهار، لا يخاف عذاب النّار، ولا يرجو نعيم الجنّة.

ولا يخفى البلاغة بالحذف في الآية الكريمة. وقد دلّ المذكور على المحذوف. ثمّ إنّ في المذكور ذاته بلاغةً بالحذف أخرى، على نحو ما تبيّن.

والّذى فُهِم ضِمْناً رغم البلاغة بالحذف من عدم استواء القانتين والعاصين صرّح به القول بعد ذلك: ﴿قُلْ هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون﴾ إنّ المؤمنين يعلمون حقّ الله تعالى عليهم، والغاية الّتى خُلقوا من أجلها، وهي إفراد الله تعالى بالعبادة، ومن ثَمَّ هم يَعْملَون وفق هذا العلم. وإنّ الكافرين لا يعلمون شيئاً من ذلك، بل يظنّون أنّهُمْ خُلِقوا عَبَثاً، وأنّ هذا الكون خُلِق باطلاً، ومن ثَمَّ هم يعملون وفق هذا الفهم السّقيم.

وإنّ المؤمنين إنّما اتّعظوا بآيات الله تعالى البيّنات في الكتاب العزيز وفي الكون لأنّ الله تعالى نوّر بصائرهم فاستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً، أمّا الكافرون فعطّلوها فكانوا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٩.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٩.

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

لّلذين أحسنوا في هذه الدّنيا حسنة: في دنياهم وأخراهم(١).

وأرض الله واسعة، وأرض الله فسيحةٌ فهاجروا من أرض الشّرك إلى دار الإسلام(٢).

إنّما يُوَفَّى الصّابرون أجرهم بغير حساب : إنّما يُعْطى الله أهل الصّبر علي ما لَقُوا فيه في الدّنيا أجرهم في الآخرة وثوابهم بغير حساب(٣).

قل يا محمّد على لسانى يا عبادي الّذين آمنوا بى ربّا، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن الكريم منهجاً، وبك يا محمّد رسولا، اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم وربّاكم بنعمه، بعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات. لّلذين أحسنوا في هذه الدّنيا ، فأرادوا بأعمالهم الصّالحة وجه ربّهم الأعلى، وبلغوا مرتبة الإحسان فعبدوا الله تعالى الّذى يراهم وكأنّهم يرونه عزّ وجلّ، لّلذين أحسنوا حسنةٌ في الأولى والآخرة. ونستطيع أن نفهم الحسنة في الأولى بأنّها الحياة الطّيّبة في الدّنيا، وأن نفهم الحسنة في الآخرة بأنّها الثّواب الجزيل في جنّات النّعيم، مصداقاً لقول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّحل(٤) : ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾.

وأرض الله تعالى أيّها المؤمنون فسيحةٌ فهاجروا من أرض الشّرك إلى دار الإسلام. ويصحّ أن يكون في القول: ﴿وأرض الله واسعة﴾ تسليةٌ للمؤمنين الذين

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٧٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٠.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٠.

(٤) الآية ٩٧.

كانوا آنذاك يُسامُون الخسف في مكّة، وإرشادٌ لهم إلى الهجرة. ومع أنّ المعنيّين بالخطاب في المقام الأوّل هم المؤمنون في مكّة فإنّ العبرة كما هو معلومٌ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب. إنّ أرض الله تعالى واسعةٌ دائماً وأبدا. وإنّ على المسلمين حينما لا يستطيعون أن يمارسوا عبادة الله تعالى بِحرِّيّةٍ كاملةٍ أن يهاجروا إلى دار الإسلام.

ولمّا كان الصّبر عماد العبادات كلّها بما في ذلك الهجرة، لأنّ الخروج من الدّيار ليس بالأمر الهيّن، كان في الآية الكريمة إيماءٌ إلى الثّواب الجزيل على الصّبر ابتغاء مرضاة الله تعالى، والأجر العظيم الّذى لا يُحْصَى ولا يُعَدّ، ولكنّه الفضل العظيم من الرّبّ الغنيّ الكريم: ﴿إنّما يُوَفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب﴾.

(٣)

« للمشركين ظُلَلٌ من النّار فوقهم وتحتهم،
وللمّتقين غُـــــرَفٌ في الجنّة
فوقهـــا غـــرف»
الآيات (١١ ـ ٢٠)

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ
وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النّار : ظُلَل جمع ظُلّة. والظُّلّة سحابة تُظِلّ. وأكثر مايقال فيما يُستَوْخَم ويُكْرَه (١) وهي الظُّلّة الّتى ليس تحتها عَمَد، بل إمساكها بالقدرة الإلهيّة(٢).

يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه محمّداً ﷺ أن يعلن على رءوس الأشهاد قائلاً : إنّى أُمِرْتُ أن أعبد الله تعالى وحده لا شريك له، مخلصاً له الدّين من الشّرك، ومخلصاً له العبادة الصّافية النقيّة الخالصة من كلّ شائبة. وأُمِرْت كذلك بأن أكون أوّل المسلمين لله تعالى ربّ العالمين من هذه الأمّة الإسلاميّة. وقل يا محمّد إنّى أخاف إن عصيت ربّي جلّ وعلا فأشركت معه غيره في العبادة أو ارتكبت المعاصي عذاب يوم القيامة العظيم، الّذى يقوم فيه النّاس لربّ العالمين. قل يا محمّد إنّى أعبد الله تعالى وحده دون سواه، مخلصاً له ديني من الشّرك، وعبادتى من الرّياء. أمّا أنتم أيّها المشركون فاعبدوا ما شئتم من دونه من الأصنام والأوثان الّتى تضرّ ولا تنفع فسوف تتبيّنون ضلالكم البعيد وخسرانكم المبين.

قل يا محمّد إنّ الخاسرين على الحقيقة هم الّذين خسروا أنفسهم بدخول النّار، وخسروا أهليهم الّذين غرّروا بهم وخدعوهم وصدّوهم عن سواء السّبيل فدخلوا جميعاً النّار، وبئس القرار.

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ظلل» ٢/ ٤٠٩.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٤٢٠.

ألا إنّ خسران الأنفس والأهل بدخول النّار هو الخسران المبين، والضّلال البعيد. لهؤلاء المشركين ظُلَلٌ من النّار تعلوهم، وطبقاتٌ بعضها فوق بعض من اللّهب تغشاهم، ذلك المصير السّيّء والعذاب الأليم يخوّف الله تعالى به عباده المؤمنين كي يصبروا على الطّاعات والبلاء وعن المعاصي، ويسلكوا سبيل الرّحمن الرّحيم ويهجروا طريق الشّيطان الرّجيم.

ويأمر الله تعالى عباده الّذين أضيفوا إليه جلّ وعلا إضافة تشريف بأن يتّقوه بفعل الطّاعات، واستباق الخيرات، ومغالبة الهوى، وسلوك طريق عباد الرّحمن، الّذين لا خوفٌ عليهم بإذن الله تعالى ولا هم يحزنون.

وليس بخاف أنّ للمسلمين أسوةً حسنةً في المصطفى ﷺ. إنّهم يعبدون الله تعالى مخلصين له الّدين ولو كره الكافرون، وإنّهم مسلمون لله تعالى ربّ العالمين ومستسلمون له عزّ وجلّ بالخضوع، ومنقادون له بالطّاعة، وخالصون من الشّرك.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

والّذين اجتنبوا الطّاغوت : أي اجتنبوا عبادة كلّ ما عبد من دون الله من شيء(١).

لهم البشرى : لهم البشرى في الدّنيا بالجنّة في الآخرة(٢).

يستمعون القول : يصغون إليه. والاستماع الإصغاء(٣).

أمّا الّذين اجتنبوا عبادة الطّاغوت. وهو كلّ ما يُعْبَد من دون الله تعالى من

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣١.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٢.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سمع» ١/ ٣٢٠.

أصنام وأوثانٍ وما إلى ذلك، لهم البشارة في الحياة الدّنيا بالجنّة في الآخرة. فبشّر يا محمّد بدخول الجنّة عبادي الّذين يُصْغون إلى القول فيتّبعون أحسنه وهو القرآن الكريم الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ. وهكذا يكون المؤمن ذا شخصية قويّة، إنّه يصغى إلى كلّ قول، ويميّز بين جيّده ورديئه، حسنه وسيّئه. وبشأن القول الحسن لا يخفى على المؤمن درجات الحُسْن. ويتبيّن المؤمن آنّ القرآن الكريم هو أحسن القول، وأجمل الحديث.

إنّ أولئك الّذين يتّبعون القرآن الكريم أحسن الحديث هم الّذين هداهم الله تعالى إلى الصّراط المستقيم، وأولئك هم أصحاب العقول الرّاجحة الّتي لا يخفى عليها أحسن الحديث.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

أفمن حقّ عليه كلمة العذاب : أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في سابق علم ربّك يا محمّد بكفره به(١).

أفأنت تنقذ من في النّار: أفأنت تهدى يا محمّد من قد سبق له في علم الله أنّه من أهل النّار إلى الإيمان فتنقذه من النّار بالإيمان؟ لست على ذلك بقادر(٢).

أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في قول الحقّ عزّ وجلّ(٣) : ﴿وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين﴾ وحقّ عليه دخول النّار، لأنّه سبق في علم الله تعالى أنّه من أهل النّار فأنت تخلّصه؟(٤) أفأنت تستطيع يا محمّد أن تهديه فتشرح صدره للإسلام فتنقذه من النّار؟ أنت يا محمّد لا تستطيع ذلك ومن باب الأحرى سِواك.

ويلاحظ أنّ التّعبير : ﴿أفأنت تنقذ من في النّار﴾ يومىء إلى أنّ هذا الكافر

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٣.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٣.

(٣) سورة هود ١١٩.

(٤) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٣٤.

في نار جهنّم يوم القيامة فعلاً. إنّ هذا ما سبق إليه علم الله تعالى، وكأنّ ما سوف يحدث قد حدث فعلاً، وها هو ذا الكافر في أعماق نار جهنّم. إنّ كون الكافر في أعماق النّار أمرٌ قد جرى به القلم وسبق في علم الله تعالى الّذى ليس الزّمن جزءاً منه. وأنت يا محمّد لا تستطيع أن تخرجه من النّار وقد دخلها فعلاً وبالتّالى أنت لا تستطيع أن تهديه وإن أحببت وحرصت.

وليس بخافٍ البلاغة بالحذف في الآية الكريمة.

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

لكن : حرف استدراك مهمل وفيه معنى الإضراب(١).

لهم غرف : جمع غرفة. والغُرْفة الحِلْيّة من البناء. وسُمِّي منازل الجنّة غُرَفا(٢).

وعد : مفعول مطلق لفعلٍ محذوف(٣).

لكن الّذين اتّقوا ربّهم عزّ وجلّ بفعل الأوامر واجتناب النّواهى لهم في الجنّة غرفٌ عالية ومبانٍ رفيعة، مِنْ فوقها غرفٌ عاليةٌ أخرى ومبانٍ رفيعة، تجرى من تحت أشجارها الأنهار.

لقد وعد الله تعالى هؤلاء المتّقين بذلك. والله تعالى لا يخلف الميعاد. ومَنْ أصدق من الله تعالى وعداً وقيلا! لا أحد.

روى الأئمّة البخارى ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ أهل الجنّة ليتراءون الغرفة في الجنّة كما تراءون الكواكب في السّماء(٤).

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٣٤.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «غرف» ٢/ ٤٦٦ ولسان العرب: «غرف».

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٣٤.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٨٢.

(٤)

« للمشركين الّذين زُيّن لهم الحياة الدّنيا عذابُ الأولى والآخرة، وللمسلمين الّذين يتّبعون القرآن الكريم جنّاتُ النّعيم»

الآيات (٢١ ـ ٣١)

أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

فسلكه : السّلوك : النّفاذ في الطّريق(١) أي فأجراه(٢) وأدخله(٣).

ينابيع في الأرض : النّبع خروج الماء من العين. والينبوع العين الّذى يخرج منه الماء وجمعه ينابيع(٤) والينبوع ما جاش من الأرض، أي: فأجراه عيوناً في الأرض(٥).

مختلفاً ألوانه : يعنى أنواعاً مختلفة من بين حنطة وشعير وسمسم وأرزّ ونحو ذلك من الأنواع المختلفة(٦).

ثمّ يهيج : يقال : هاج البقل يهيج اصفرّ(٧) يقول: ثم ييبس ذلك الزّرع من بعد خضرته. يقال للأرض إذا يبس ما فيها من الخضر وذوى: هاجت الأرض وهاج الزّرع(٨).

فتراه مصفرّا : فتراه من بعد خضرته ورطوبته قد يبس فصار أصفر. وكذلك

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «سلك» ١/ ٣١٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٣.

(٣) الجلالين.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «نبع» ٢/ ٦٢٢.

(٥) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٣.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «هاج» ٢/ ٧١١.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٣.

الزّرع إذا يبس اصفرّ(١).

ثمّ يجعله حطاما : الحطم كسر الشّيء مثل الهشم ونحوه، ثمّ استعمل لكلّ كسرٍ متناه. والحُطام ما يتكسّر من اليُبْس(٢) وفتات التّبن والحشيش. يقول: ثمّ يجعل ذلك الزّرع بعد ما صار يابساً فتاتاً متكسّرا(٣).

ألم تر يا محمّد ويا أيّها الإنسان أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل من السّماء ماءً حلواً فراتاً فأجراه في أعماق الأرض عيوناً، وفجّر منها ينابيع تجيش بذلك الماء العذب الزُّلال. ثمّ يُخْرج الحقّ جلّ وعلا بذلك الماء الواحد زرعاً مختلفاً ألوانه وأنواعه، وضروب ثمره شكلاً وطعماً ورائحة.

وبعد أن كان الزّرع الغاية في الخُضْرة والنَّضْرة يأخذ بإرادة الله تعالى في الذّبول فتراه مصفراً، ثمّ يدبّ بإذن الله تعالى في أوصاله الموت والفناء فتراه قد تحوّل حطاماً، وغدا هشيماً تذروه الرّياح.

إنّ في فعل الله تعالى ذلك، مِنْ إنزال الماء من المُزْن، وقد جعل عزّ وجل منه كلّ شيءٍ حيّ بما في ذلك النّبات، إلى أن يغدو النّبات هشيماً تذروه الرّياح عظةً لأولى العقول الرّاجحة.

إنّ الله تعالى الّذي يفعل كلّ ذلك هو القادر على فعل كلّ شيء، بما في ذلك البعث بعد الموت، فعلى كفّار مكّة أن يوحّدوا الله تعالى، وأن يؤمنوا بالرّسول الكريم ﷺ وبالقرآن الكريم وبالبعث ويعملوا لما بعد الموت. وإنّ ممّا ينبغي على النّاس، أصحاب العقول الرّاجحة والقلوب السّليمة، أن يعلموه ويعملوا بموجبه، أنّ الزّرع الّذي نما بفضل الله تعالى بالماء حتّى ملأ كلّ عينٍ لذّة، وكلّ نفسٍ بهجة، ثمّ غدا بإذن الله تعالى حطاماً أو هشيماً تذروه الرّياح أو يعبث به الهواء، إنّما هو مَثَلٌ لهذه الحياة الدّنيا. إنّ مصير كلٍّ من الزّرع والحياة الدّنيا إلى فناءٍ وزوال.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ١٣٣.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حطم» ١/ ١٦٢.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ١٣٤.

إنّ على المؤمنين أصحاب العقول الرّاجحة والقلوب السّليمة أن يعلموا أنّ هذه الحياة الدّنيا دار الدّنيا دار عملٍ وممرّ، وأنّ لحياة الأخرى دار جزاءٍ ومستقرّ، وأن يعملوا وفق ذلك العلم.

وإنّ العبرة الّتي أومأت إليها الآية الكريمة قد أفصحت بها آياتٌ آخر، ومن ذلك قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الكهف(١) : ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرّياح. وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدرا﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا في سورة يونس(٢): ﴿إنّما مثل الحياة الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل النّاس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يتفكّرون﴾.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

فويلٌ : كلمة عذاب(٣) تقال لكلّ من وقع في عذابٍ أو هَلَكة(٤) .

للقاسية قلوبهم من ذكر الله : لّلذين جفّت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعنى عن القرآن الّذى أنزله تعالى ذكره مذكّراً به عباده، فلم يؤمن به ولم يصدّق بما فيه. وقيل: ﴿من ذكر الله﴾ والمعنى عن ذكر الله، فوضعت مِنْ مكان عَنْ(٥) .

---

(١) الآية ٤٥.

(٢) الآية ٢٤ وانظر الآية الكريمة رقم ٢٠ من سورة الحديد.

(٣) الجلالين.

(٤) لسان العرب: «ويل».

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٤.

أفمن شرح الله تعالى صدره لدين الإسلام الّذى بعث به محمّد بن عبدالله ﷺ، ووسّعه لاستيعاب نور القرآن الكريم، وبسطه لاستقبال هَدْي خير الأنام، محمّد بن عبدالله ﷺ، فهو على نورٍ من ربّه عزّ وجلّ، يهتدى بنور القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم، والّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ، كمن جعل الله تعالى صدره ضيّقاً حَرَجاً كأنّما يصّعّد في السّماء فيرتفع ضغط الدّم وينعدم الأكسجين في الهواء فيكون الهلاك حتماً، والضّلال حقّاً؟.

وليس بخافٍ البلاغة بالحذف في الآية الكريمة. وقد دلّ صدر الآية الكريمة على المحذوف من الصّدر. ودلّ ما بعد ذلك على الكلام المحذوف ذاته. وكأنّ أصل الكلام: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه﴾ كمن ضيّق الله تعالى صدره، ثمرةً نكدةً لإصراره على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى، وزاد عزّ وجلّ بصيرته عمىً إلى عماها لإعراضه عن الطّريق المستقيم، وجعل قلبه الغاية فى القسوة والغِلَظ لرفضه قبول دعوة الحقّ، وكلمة الصّدق، وطرده نور الهدى، وبرد الإيمان، فهو في ضلالٍ مبين.

وليس بخافٍ أنّ هذا الكلام المحذوف قد أومأ إليه القول: ﴿فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله. أولئك في ضلالٍ مبين﴾ والمعنى: هلاكٌ أكيدٌ، وعذابٌ شديد، لّلذين ضاقت صدورهم فلم تتّسعْ للإسلام، وانقبضت قلوبهم، فلم تنبسط لهدي القرآن الكريم وسنّة خير الأنام ﷺ. لقد غدت تلك الصّدور ضيّقة، والقلوب قاسية، بسبب خلوّها من ذكر الله تعالى، وإعراضها عن كلام الله تعالى الّذى تبيّنه سنّة الحبيب ﷺ. إنّ أولئك المشركين في الضّلال البيّن حقّاً لكلّ من لديه ذرّةٌ من عقل، ومُسْكةٌ من فهم.

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

كتاباً : يعنى به القرآن(١).

متشابهاً : يشبه بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً، ويدلّ بعضه على بعض(٢).

مثاني : تَثنّى فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج(٣) والوعد والوعيد(٤) والثّواب والعقاب(٥).

تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربهّم: أي يعلوها قشعريرة(٦) وهي الرِّعدة واقْشِعْرار الجلد. وفي حديث كعب: إنّ الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدّت(٧) واقشعرّت، أي تقبّضت وتجمّعَت(٨) ويقول الفرّاء(٩) :«تقشعرّ خوفاً من آية العذاب إذا نزلت ﴿ثمّ تلين﴾ عند نزول آية رحمة».

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٥ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى:«شبه» ١/ ٣٣٦.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٥.

(٤) الجلالين.

(٥) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٤١٨.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى:«قشعر» ٢/ ٥٢٢.

(٧) اربدّت: اختلط سوادها بكُدْرة.

(٨) لسان العرب: «قشعر».

(٩) معانى القرآن ٢/ ٤١٨.

ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله: أي تطمئنّ إلى ذكر الله(١).
ذلك : القرآن(٢).

الله تعالى نزّل على حبيبه محمّد ﷺ أحسن الحديث، وأطيب الكلام، كتاباً عزيزاً، وقرآناً مجيدا، يشبه بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً، ويفسّر بعضه بعضاً. تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم وتنكمش خوفاً من آيات العذاب، ثمّ تلين جلودهم وتنبسط، تستقرّ قلوبهم وتطمئنّ إلى ذكر الله تعالى، طمعاً في فضل الله تعالى عند تلاوة آيات الرّحمة.

ذلك الكتاب العزيز والقرآن المجيد هدى الله تعالى يهدى به من يشاء من عباده الّذين جاهدوا فيه عزّ وجلّ فهداهم سبله وزادهم هدى. أمّا الّذى يضلّه الله تعالى فما له من هادٍ يهديه إلى سواء السّبيل.

ونستطيع أن نفهم أنّ الّذى أضلّه الله تعالى وزاده ضلالاً كان قد اختار بمحض إرادته من قَبْلُ الضّلالة وآثرها على الهدى، وذلك بتكذيب القرآن الكريم وخير الأنام ﷺ، الّذى أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم. وكأنّ هذا الضّالّ عن سبيل الهدى يشمئزّ قلبه وينفر حين سماع القرآن الكريم. وبذلك يكون في الآية الكريمة بلاغةٌ بالحذف. وقد دلّ المذكور على المحذوف.

ونستطيع أن نتبيّن شيئاً من علاقة بين القول هنا: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى﴾ وبين القول في السّورة الكريمة(٣) : ﴿فبشّرْ عباد. الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه﴾ إنّ القرآن الكريم أحسن القول. وإيماءً إلى تشابه أجزاء القرآن الكريم وتصديق بعضه بعضاً أشار الحقّ جلّ وعلا في القول(٤) : ﴿أفلا يتدبرّون القرآن ولو كان من عند غير لله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾.

ومن بليغ القول بشأن الأرض إذا اقشعرّت بمعنى تقبّضت، وصوّح نبتها

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٣٧ والجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٥.

(٣) سورة الزّمر ١٧و١٨.

(٤) سورة النساء ٨٢.

بمعنى تصوّح أي يبس، قول أبى عليّ البصير:

ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت ** وصوّح نبتها رْعِيَ الهشيم(١).

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

أفمن يتّقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة: يقال: إنّ الكافر تنطلق به الخَزَنة إلى النّار مغلولاً، فيُقْذَفُ به في النّار، فلا يتّقيها إلاّ بوجهه. وجوابه من المضمر(٢) ومعنى الكلام: أفمن يتّقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة خيرٌ أم من ينعم في الجنان(٣) أفمن يلقى بوجهه أشدّ العذاب بأن يُلْقى في النّار مغلولةً يداه إلى عنقه كمن أمن منه بدخول الجنّة(٤).

أفمن يَلْقى بوجهه أشدّ العذاب يوم القيامة، حينما يُلْقَى في نار جهنّم مشدودةً يداه إلى عنقه، فيسقط على حرّ وجهه، كمن يأتى آمناً يوم القيامة، ويدخل جنّات النّعيم مكرَّماً ومبجّلا. بطبيعة الحال لا يستوى الفريقان. وقيل للظّالمين الّذين وضعوا العبادة في غير موضعها: ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون من آثام، وتأتون من فجور.

كذّب الّذين مِنْ قبل كفّار مكّة رسل الله تعالى إليهم، فأتاهم عذاب الله

---

(١) لسان العرب: «صوح».

(٢) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٤١٨.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٦.

(٤) انظر الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٣٩.

تعالى من حيث لا يشعرون ولا يرتقبون.

فأذاق الله تعالى أولئك السّابقين المكذّبين للرّسل عذاب الخزي في الحياة الدّنيا من قتلٍ وأسرٍ وهزيمةٍ. ولعذاب الآخرة أكبر وأفظع وأشنع. لو كان الكافرون يعلمون ذلك العذاب الأليم لأقلعوا عن الكفر وفرّوا إلى الإيمان.

وليس بخافٍ أنّنا بصدد تهديدٍ لكفّار مكّة، وبصدد تسليةٍ للمصطفى ﷺ بطريقٍ غير مباشر.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

ولقد ضربنا : جعلنا(١).

قرآناً عربيّاً غير ذي عوج: أي هو قرآن بلسانٍ عربيّ مبين. لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس. بل هو بيانٌ ووضوحٌ وبرهانٌ(٢) والعَوَج بفتح العين يقال فيما يُدْرك بالبصر سهلاً، كالخشب المنتصب ونحوه. والعِوج يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة. كما يكون في أرضٍ بسيطٍ يُعْرَف تفاوته بالبصّيرة، وكالدّين والمعاش(٣).

ولقد جعلنا للنّاس في هذا القرآن الكريم من كلّ مثلٍ يملأ كلّ أذنٍ حكمة، وكلّ عقلٍ رضا، وكلّ نفسٍ سعادة، لعلّهم يتذكّرون ويتّعظون، قرآناً كريماً بلسانٍ عربيٍّ مبين، مستقيم المعنى فلا عِوج فيه ولا التواء ولا غموض. صحيح المبنى فلا تفاوت فيه ولا خلل ولا اضطراب، لعلّهم يتّقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي.

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٨٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «عوج» ٢/ ٤٥٦ وانظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٧.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

فيه شركاء متشاكسون : مختلفون متنازعون سيّئةٌ أخلاقهم، من قولهم: رجلٌ شكِس، إذا كان سيّىء الخلق، وكلّ واحدٍ منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه(١).

سلما : خالصاً(٢).

جعل الله سبحانه وتعالى مثلاً للمشرك الّذى يعبد الأصنام والأوثان، وللموحِّد الّذى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له. هذا الرّجل المشرك الّذى يعبد الأصنام والأوثان بمثابة العبد الّذى يملكه عددٌ من الشّركاء السّيّئى الخلق المختلفين المتنازعين. إنّ كلّ واحد من مالكيه يأمره بما شاء بمقدار نصيبه منه. وما دام المالكون متشاكسين متنازعين فذلك معناه اصطدام الأوامر وتضارب المصالح. وماذا يستطيع المملوك الواحد أن يفعل كي يرضى عنه كلّ مالكيه. إنّه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ذا بال، فكيف يستطيع أن يرضي جميع مالكيه! وهكذا يحتار المملوك ويسخط المالكون.

إنّ هذا هو حال المشرك. لا هدوء ولا استقرار ولا ارتياح ضمير ولا هدوء بال.

أمّا الرّجل الموحّد الّذى يفرد الله تعالى بالعبادة فإنّه بمثابة المملوك لسيّد واحد. إنّ أوامر السّيّد واحدة، ومعقولةٌ في ذاتها، ومتناغمةٌ مع أخواتها. وإنّ المملوك الخاضع لسيّده يخلص في عمله، فيرضى عنه سيّده، وإن احتاج العون أعانه سيّده، وإن قصّر عذره، وربّما عاتبه أو عاقبه، في حدود تقصيره أو ذنبه.

إنّ هذا هو حال الموحّد. هدوء بال، واستقرار حال، ورضاً عنه من الكبير المتعال، ذى العزّة والجلال.

هل يستوى المملوك لجماعة وهو مَثَل المشرك، والمملوك لواحد، وهو مثل المؤمن؟.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٦.

(٢) الجلالين وانظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٤١٩ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣٧.

ولّما كان الجواب معروفاً والمعنى واضحاً فلا يستوى أصحاب النّار وأصحاب الجنّة جاء القول: ﴿الحمد لله﴾ إنّ الثّناء كلّه لله تعالى ذى الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة.

الحقيقة أنّ أكثر أهل مكّة وأكثر المشركين لا يعلمون هذه المعانى البهيّة، والمرامى القصيّة، لذا هم في شركهم منغمسون، وعن التّوحيد معرضون.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

إنّك يا محمّد ميّتٌ وإنّهم ميّتون، فلا داعي لأن يتربّص بك المشركون ريب المنون، لأنّهم ميّتون كذلك، ولأنّ الجميع في الموت سواء. وإنّما الفرق بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة. إنّ المؤمنين في جنّات النّعيم. وإنّ الكافرين في نار الجحيم.

ثمّ إنّكم جميعاً أيّها المؤمنون والكافرون ويا أيّها المختلفون في هذه الحياة الأولى حول الكثير من الشّئون، سوف تختصمون يوم القيامة عند ربّكم عزّ وجلّ، وسوف ينصر المؤمنين على الكافرين، والمحقّين على المبطلين.

إنّ عليكم أيّها الكافرون أن تهجروا الكفر وأن تتحوّلوا مسلمين لله تعالى ربّ العالمين، قبل فوات الأوان، وقبل أن تحقّ كلمة العذاب على الكافرين.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرّمة
صبيحة يوم الجمعة ٢٨/ ١٠/ ١٤٢٠هـ
الموافق ٤/ ٢/ ٢٠٠٠م

كتبه الفقير الى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدمة		٧
أوّلاً: تمام سورة يس.		٩
بين يدي التّفسير		١٥
التّفسير		٢٧-٧٣
١ـ هوان الكافرين على الله تعالى وعذابهم في الأولى والآخرة.	٢٨-٣٢	٢٩
٢ـ آيات المكان والزّمان والحمل فوق الماء.	٣٣-٤٤	٣٥
٣ـ جزاء الكافرين النّار، وجزاء المؤمنين الجنّة.	٤٥-٧٠	٤٩
٤ ـ إصرار الكافرين على الإعراض عن آيات الله تعالى وعقابهم وتسلية النّبيّ ﷺ.	٧١-٧٦	٦٣
٥ ـ الله تعالى قادرٌ على إعادة خلق الإنسان والسّماوات والأرض.	٧٧-٨٣	٦٩
تعقيب		٧٧
ثانياً: سورة الصّافات.		٨٥
بين يدي التّفسير		٩٥
التّفسير		١١٣-١٨٩
١ـ الله تعالى الخالق، زيّن السّماء الدّنيا بالكواكب، وحفظها من الشّياطين بالشّهب.	١-١٠	١١٥
٢ـ الأولياء في الدّنيا من منكرى البعث أعداء في الآخرة.	١١-٣٩	١٢٣
٣ـ ثواب العاملين ليوم القيامة وعذاب المنكرين للبعث.	٤٠-٧٤	١٣٣
٤ـ نصر الله تعالى نوحاً وإبراهيم وموسى وهارون	٧٥-١٤٨	

وإلياس ولوطاً عليهم السّلام، ونجّى يونس عليه السّلام من الغمّ.		١٤٧
٥ ـ يصرّ كفّار مكّة على كفرهم وزعمهم أنّ الملائكة بنات الله، وتعلن الملائكة أنّهم عباد الله، فأعرض يا محمّد عن الكافرين وسبّح بحمد ربّك.	١٤٩-١٨٢	١٧٧ ١٩٠
تعقيب		
ثالثاً: سورة ص.		٢٠٣
بين يدي التّفسير		٢١١
التّفسير		٢٢٧
١ ـ لكفّار مكّة المستهزئين خزيٌ الدّنيا وعذاب الآخرة، كالكفّار السّابقين.	١-١٦	٢٢٩
٢ ـ لك يا محمّد في الصّبر أُسوةٌ حسنةٌ في كوكبة من النّبيّين الكرام، عليهم من الله تعالى أزكى الصّلاة وأتمّ السّلام.	١٧-٤٨	٢٤١
٣ ـ ثواب المتّقين في الجنّة عظيم، وعذاب الطّاغين في النّار أليم، وتخاصم أهل النّار فيها.	٤٩-٦٤	٢٦٧
٤ ـ القرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين والمشتمل على الكثير من أمور الغيب ذكرٌ للعالمين.	٦٥-٨٨	٢٧٧
تعقيب		٢٨٧
رابعاً: سورة الزّمر حتّى نهاية الجزّ الثالث والعشرين		٢٩٧

بين يدي التّفسير		٣٠٣
التّفسير		٣١٥
١ـ الله تعالى الّذى أنزل الكتاب العزيز وخلق السّماوات والأرض وما بينهما وخلق النّاس هو المستحقّ أن يفرد بالعبادة.	١-٦	٣١٧
٢ ـ عذاب الكفورين الجحودين في النّار أليم، وثواب الشّكورين الصّبورين في الجنّة عظيم.	٧-١٠	٣٢٧
٣ ـ للمشركين ظُلَلٌ من النّار فوقهم وتحتهم، وللمتّقين غُرَفٌ في الجنّة فوقها غرف.	١١-٢٠	٣٣٥
٤ ـ للمشركين الّذين زُيِّن لهم الحياة الدّنيا عذاب الأولى والآخرة، وللمسلمين الّذين يتّبعون القرآن الكريم جنّاتُ النّعيم.	٢١-٣١	٣٤١
فهرست الموضوعات.		٣٥٣